

## الكشف والتبيين عن رحلة القاصدين ورغبة الزائرین

عبد الله نجمي

تمت الإشارة إلى "رحلة القاصدين ورغبة الزائرین" في فهارس الخزائنة الحسنية التي تحفظ المخطوطة الفريدة المتوفرة منها<sup>1</sup>، وحصل النظر إليها في سياق الرحلات الحجازية المدونة في العصر العلوي الأول<sup>2</sup>، ووقع الاهتبال بها في إطار دراسة الرحلات المغربية المصنفة خلال القرنين 11 و17/12 و18<sup>3</sup>. وتواتر ذكرها في الأسطوغرافية المتعلقة بتاريخ المغرب الحديث، سواء فيما اتصل منها بالتأليف المونوغرافي في بعض حلقاته<sup>4</sup>، أو فيما اتصل منها بمجال تحقيق بعض أمهات مصادره<sup>5</sup>. كما حصلت العناية بترجمة مؤلفها عبد الرحمان الغنامي الشاوي، وصدرت هذه الترجمة في أحدث أجزاء "معلمة المغرب"<sup>6</sup>. وتحقق لهذه الرحلة الانفلات من الدوران في فلك التاريخ والمؤرخين، وتهياً لها أن تسبح في فلك السيميولوجية وعلماء الدليل. ونشط مؤلفها من عقال المحلية الضيق، وتبوأ مقعده مع مشاهير الرحالة العرب والمسلمين شرقاً وغرباً، من ابن بطوطة إلى هلم جر<sup>7</sup>.

(1) محمد عبد الله عنان، فهارس الخزائنة الملكية، المجلد الأول، فهرس قسم التاريخ وكتب الرحلات، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1980، ص. 455.

- محمد عبد الله عنان وعبد العالي لمدير ومحمد سعيد حنشي، إشراف ومراجعة أحمد شوقي بنين، فهارس الخزائنة الحسنية، الجزء الأول، فهرس قسم التاريخ والرحلات والإجازات، المطبعة الملكية، الرباط، 2000، ص. 559-560.

(2) محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى العصر الحديث، الجزء الأول، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، 1983، ص. 189، رقم 497.

(3) محمد مكمان، الرحلات المغربية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة، رسالة جامعية محفوظة بخزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1986، ص. 176-177.

(4) عبد اللطيف الشادلي، الحركة العياشية: حلقة من تاريخ المغرب في القرن 17، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1982، 190، 197-198، ص. 263-265.

(5) محمد الصغير الإفرني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشادلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1998، ص. 386، الهامش 21.

(6) محمد مكمان، عبد الرحمان بن أبي القاسم الغنامي الشاوي، معلمة المغرب، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 2002، ج. 16، ص. 5274-5273.

(7) محمد مفتاح، صور من تاسمنا في مرآة رحلة، ضمن أعمال ندوة "الرحالة العرب والمسلمون، اكتشاف الآخر: المغرب منطلقاً وموتلاً"، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2003، ص. 229-251.

وحفلت خاتمة الدراسات التي اهتمت بهذه الرحلة بالتنبيه إلى الصعوبات الكبيرة التي تعنور متنها، والألغاز التي تكتنف سيرة مؤلفها، وما يلاحظ فيها من مفارقة، وما يتصل بها من تعقيد<sup>8</sup>. وتبدد هذه التنبيهات الوهم الذي يوحى به التقديم، وقوامه أن "رحلة القاصدين" قد استوفت حقها من العناية، وأن مؤلفها قدم تم التعريف به غاية. وتدعو إلى ما نرومه من تدقيق يتوق إلى فك الخيطان التي نسجت على "رحلة القاصدين" حبالها، وتحقيق يروم إرجاع شوارد إلى نصابها. ومثل هذه النتيجة لا تتحقق جفلا، وإنما تتأتى على مكث، وبعد بسط وقائع وأحداث التاريخ الذي اكتنف هذه الرحلة، وتتبعها أولا بأول.

## النقل الفريد

وقف المؤرخ محمد الصغير الإفرائي (ت ما بين 1156 و1157/1743-1744) على رحلة عبد الرحمان الغنامي الشاوي بخطه وتقرّد بالنقل منها في "النزهة"<sup>9</sup> و"الصفوة"<sup>10</sup>. ومناسبة النقل واحدة في التاريخين، وهو الحديث عن غزوة البريجة التي تعد خاتمة غزوات المجاهد محمد بن أحمد العياشي (ت 1641/1051). وتتقرّد هذه الرحلة بدورها بخبر هذه الغزوة، وتمتاز بعلم صاحبها بدقائق وتفاصيل هذه الوقعة التي حدثت عام 1639/1049، وتفضل بحضوره فيها، فلولاها ما أمكن التأريخ لهذه الحلقة الهامة من حلقات الحركة العياشية<sup>11</sup>.

ولم يذكر الإفرائي اسما لهذه الرحلة ولا عين لها وسما، على الرغم من أنه اعتمد عليها في تاريخيه المذكورين تباعا. وعدها فيهما من المصادر الرئيسية، وحرص على ذكرها وسلكها في الكشف البيبليوغرافي الذي ختم به "الصفوة"<sup>12</sup>. ويصعب الركون إلى القول إن هذا تغافلا من الإفرائي أو سذرا، لأن الرحلة وصاحبها لم يلبغا من الشهرة الدرجة التي يغني معها ذكر واضعها عن ذكر عنوانها، أو العكس. فلا يبق إلا الافتراض أنها من الغفل من

(8) نفس المرجع، ص. 229، 231 والهامش 7، ص. 235، 251.

(9) م. الإفرائي، نزهة، مصدر سابق، ص. 386-388.

(10) نفس المؤلف، صفوة من انتشر من اخبار صلحاء القرن الحادي عشر، المطبعة الحجرية بفاس، دون تاريخ، ص. 89.

(11) عن غزوة البريجة انظر: ع. الشاذلي، الحركة العياشية، مرجع سابق، ص. 129-130.

(12) م. الإفرائي، صفوة، مصدر سابق، ص. 227.

الكتب الذي لم يوضع له وسم أو عنوان، أو أن أولها مبتور وتتقصها الورقات التي بها الديباجة والعنوان. ومهما يكن، فقد اقتصر الإفرائي على نسبة هذه الرحلة إلى صاحبها المسمى عبد الرحمان، والمعروف برحو الغنامي الشاوي.

والإفرائي ليس من المتساهلين في التحليات، وإن تعلق بالأوصاف الظاهرة كالدرجة الحاصلة في العلم. وحين قال في حق رحو الغنامي "الفقيه العلامة"، فإنما صدر في ذلك عن نبا يقين أو نقل صحيح. وهذا ينم عن خطورة هذا العلم في الحياة الفكرية بمملكة مراكش على عهد الفترة من المائة الحادية عشرة للهجرة، وأنه من النبهاء الذين لحقهم الإهمال، وثووا في قبوري تراب وإخمال. وقال عنه أيضا إنه قاضي تامسنا حين وقعت غزوة البريجة، بمعنى أنه أحد خاصة مملكة مراكش على عهد السلطان محمد الشيخ الأصغر بن زيدان السعدي (1045-1064/1635-1653).

ويستشف من كلام الإفرائي في "النزهة" أن رحو الغنامي لم يكن من زمرة الفقهاء الراضين عن السلطان محمد الشيخ الأصغر الذي ألقى السلم إلى البرتغاليين المحتلين ثغر البريجة، والذي اتهم المجاهد العياشي بالطمع في الملك، وسلط عليه قاضي قضاة مملكته عيسى بن عبد الرحمان السكتاني (ت 1062/1652)، ليفسد عليه أمره ويصرف الناس عنه.

وينبئ تقجع رحو الغنامي على ذلة المسلمين وعزة النصاري عن غيرة دينية صادقة وروح وطنية عالية، ويمكن إدراج بعض عباراته في باب الآثار الأدبية المتعلقة بالجهاد والحض عليه، ومنها: "فكان من عزة النصاري وذلة الإسلام في هذه المدة ما تتفطر منه الأكباد وتخر الجبال هدا، فمن ذلك أن زوجة القبطان خرجت ذات يوم في محفثها ومعها صواحبها إلى أن وصلت حلة العرب، فتلقاها أهل الحلة بالولاول - أي الزغاريت - والفرح، وصنعوا لها من الأطعمة، وحملوا لها هدايا من الدجاج والحليب والبيض، فظلت عندهم في فرح عظيم، ولما كان الليل رجعت. ووقع لها أيضا مرة أخرى أنها أمرت زوجها القبطان أن يخرج بجيوشه، ويبعث لقائد أزمور ويخرج بجيوش المسلمين، فيلعبون فيما بينهم وهي تنظر إليهم وتنتزه فيهم فكان ذلك، فجعلوا يلعبون وهي تتفرج فيهم. فما كان إلا أن حمل كافر على مسلم فقلته، فكلم قائد المسلمين القبطان، وأخبره بما وقع، فقال القبطان: فما يضرك إن

مات شهيدا، يهزأ به ويسخر بالمسلمين. قال: وكان الولي الصالح العابد الزاهد المجاهد رافع لواء الإسلام ومحبي منهاج النبي عليه الصلاة والسلام سيدي محمد العياشي، كلما سمع أو رأى شيئا من ذلك تغير وبات لا يلتذ بطعام ولا منام، وهو ينظر كيف تكون الحيلة في زوال المعرة عن المسلمين وغسل أعراضهم من وسخ الإهانة<sup>13</sup>.

ويتعين أن يذكر رحو الغنامي وحسب في زمرة العلماء المتطوعين والمشاركين في الجهاد مع العياشي، أمثال عبد الواحد بن عاشر الأنصاري (ت 1631/1040)، وعبد الهادي بن طاهر الحسني (ت 1646/1056)، وغيرهما<sup>14</sup>. ولم تقتصر مشاركته في غزوة البريجة على حضورها فحسب، بل ومساهمته في الإعداد والتخطيط لها، ويذكر أن ذلك استغرق ثلاث سنين لم تهجع خلالها العيون المرصودة من قبل صاحب مراکش وقائد أزمور وقبطان البريجة. ويكشف الحيلة التي دبرها العياشي، وأنه استخدم بعض أولاد ذويب<sup>15</sup> من أولاد أبي عزيز<sup>16</sup>، واخترق بهم أمن البرتغاليين وأنه أوهم بتوجهه للعرانش، ثم أتى البريجة بغثة، وظفر بجيشها، وقتل حاكمها.

## الكرامة والشاهد

من بين أحداث غزوة البريجة التي سجلها رحو الغنامي في رحلته حدث عبور المجاهد العياشي وجيشه نهر أم الربيع، والذي عد من كراماته. ذلك أن النهر كان في نهاية المد والامتلاء، لا يدرك له قعر، ولا يكاد يدخله أحد إلا غرق. وكان على العياشي أن ينتهز الفرصة في العدو قبل أن يخبرهم العيون والجواسيس، فقال لأصحابه: توكلوا على الله واجتهدوا في الدعاء ثم اقتحم الوادي بفرسه، وتبعه الناس، فعبروا جميعا، ولم يتأخر منهم أحد، وكان الماء يصل إلى قريب من ركب خيولهم.

وكان رحو الغنامي مع الذين جاوز العياشي بهم النهر، وقال: "وهذه كرامة عظيمة وبرهان عظيم وقع له، رضي الله عنه، ولم نسمع بمثل هذا وقع إلا للصحابه رضي الله

(13) م. الإفرائي، نزهة، مصدر سابق، ص. 386-387.

(14) عن العلماء المتطوعين والمشاركين في الحركة الجهادية العياشية، انظر: محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، مطبعة فضالة، 1977، ج. 1، ص. 216-197.

(15) عن أولاد ذويب انظر: محمد الشياظمي، أولاد بوعزيز، معلمة المغرب، مرجع سابق، ج. 3، ص. 910.

(16) عن أولاد بوعزيز انظر نفس المرجع، نفس الصفحة.

عنهم، كما وقع للعلاء بن الحضرمي في فتوح العراق، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء"<sup>17</sup>. وبينم هذا التعليق عن غزارة المادة التاريخية التي كان يتمتع بها رحو الغنامي، ويشهد على قدرته على استحضار الوقائع المناسبة من سير الصحابة، وحسن مقارنته بين ما وقع للعايشي وما وقع للصحابي العلاء بن عبد الله الحضرمي (ت 642/21)، وهو من رجال الفتوح في صدر الإسلام، ويقال إنه أول مسلم ركب البحر للغزو.

وقد اهتبل الإفراني بهذه الحادثة في تأريخه للحركة العياشية في كتابه "النزهة"، واعتنى بها أيضا في الترجمة التي عقدها للعايشي من تأليفه "الصفوة"، وزادها تفصيلا وتوضيحا وحدد الموضع الذي عبره العيايشي وجنده من نهر أم الربيع، وهو مشرع أبي الأعوان<sup>18</sup>، وأكد أن الحكاية شهيرة، وأن القاضي رحو الغنامي كان حاضرا للقضية<sup>19</sup>.

## عفاء الأثر

لم يقدر لرحلة رحو الغنامي أن تتسخ وتتوافر، كما لم يقدر لأصلها المكتوب بخط مؤلفها أن يصاب وتدفع عنه عوادي الأيام، فعفا أثرها وعمي عنها المؤرخون، وزهل عن صاحبها المترجمون. ولم يبق منها سوى النقل الثاوي في "النزهة" و"الصفوة"، ولم يتخلف من سيرة مصنفها سوى ما ذكره الإفراني فيهما. ويؤكد الشيخ عبد السلام بن سودة (ت 1400/1980) هذا الأمر، ويصرح بأنه لم يقف على خبرها ولا على ترجمة مؤلفها قط<sup>20</sup>، وهذا بعد مرور ما يقرب من القرنين ونصف القرن على النقل المذكور.

وقد عاش عبد القادر بن محمد أبو املاق خلال النصف الثاني من القرن 13/19، وألف كتاب "الخبر عن ظهور الفقيه العياشي بهذه البلاد، وذكر سبب قيامه بوظيفة الجهاد"<sup>21</sup>، وذكر فيه رحو الغنامي ورحلته نقلا عن الإفراني. ويحمد له انصافه هذا الرحالة والعالم المجاهد، وأكباره قوله في حق العياشي وتحليلته "بالولي الصالح العابد الزاهد، المجاهد في

(17) م. الإفراني، نزهة، مصدر سابق، ص. 387.

(18) عن منطقة أبي الأعوان، بجنوب دكالة انظر: إسماعيل الخياطي، بولعوان، معلمة، مرجع سابق، ج. 6، ص. 1847.

(19) م. الأفراني، صفوة، مصدر سابق، ص. 89.

(20) عبد السلام بن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1965، ج 2 ص. 343، رقم 1474.

(21) عبد القادر أبو املاق، الخبر عن ظهور الفقيه العياشي، ضمن الحركة العياشية، مرجع سابق، ص. 185-294.

سبيل الله، حامل لواء الإسلام، ومحبي منهاج النبي عليه الصلاة والسلام"، وعده في زمرة أكابر العلماء والصوفية الذين أثنوا على العياشي ومدحوه. بل إنه جعله واسطة عقدهم، وقدم عليه الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي (ت1636/1046)، والشيخ محمد بن أحمد ميارة (ت1662/1072). وذكر من بعده الشيخ محمد بن ناصر الدرعي (ت1674/1085)، والأديب محمد بن أحمد المكلائي (ت1631/1041)، والشيخ عبد الواحد بن أحمد بن عاشر (ت1631/1040)<sup>22</sup>.

وتكرر نفس النقل في كتاب "الاستقصا"، وأفرد الناصري فيه فصلا خاصا لغزوة البريجة التي حضرها رحو الغنامي، وصدق خبرها الذي فصلت فيه رحلته بما كتبه المؤرخ البرتغالي لويز مارية في كتابه الموضوع في أخبار الجديدة. واهتم بالكرامة التي شاهدها القاضي الغنامي، والتي وقعت للمجاهد العياشي في عبوره نهر أم الربيع الممتلئ. واجتهد في تأييدها ورأى أن الأديب محمد بن أحمد المكلائي قد أشار إليها أيضا في القصيدة التي مدح بها العياشي بهذه المناسبة، والتي جلبها كاملة وختم بها هذا الفصل من تاريخه.

والوقع أن البيتين الأخيرين من هذه القصيدة يوهمان بهذا المعنى، ولا يقصدانه تلميحا أو تصريحاً، وهما:

ولم أر بحرا جاوز البحر قبلكم \* تجود لمستجد أنامله السحب  
وما يستوي البحرين عندي فإن ذا \* أجاج لعمرى في المذاق وذا عذب

فالبحر المقصود في هذين البيتين هو البحر الأجاج على الحقيقة لا نهر أم الربيع على المجاز، والمجازة المقصودة هي الزيادة والتفوق لا العبور والاجتياز. والعرض هو المدح بالجود وكثرة العطاء، لا الإشارة إلى الكرامة التي ذكرها رحو الغنامي في رحلته. ويؤكد هذه المخالفة في المعنى ذهول الناصري على أن المكلائي قد توفي عام 1631/1041، أي قبل غزوة البريجة التي وقعت عام 1639/1049.

(22) نفس المصدر، ضمن نفس المرجع، ص. 197-199.

وتأييدا لهذه الكرامة وافق الناصري على قول الغنامي إن ما وقع للعايشي لم يسمع بوقوع مثله إلا للصحابه، وجلب المثل الذي ضرب، والذي وقع للعلاء بن الحضرمي، وزاد عليه مثلا مؤيدا وقع لسعد بن أبي وقاص (ت 675/55) في عبوره نهر دجلة لفتح المدائن<sup>23</sup>.

## بزوغ رحلة القاصدين

تم الاهتمام إلى مخطوطة "رحلة القاصدين" المحفوظة بالخزانة الحسينية خلال السنوات الممتدة ما بين صدور الطبعة الثانية من "دليل مؤرخ المغرب الأقصى" (1965)<sup>24</sup>، وصدور "فهارس الخزانة الملكية" (1980)<sup>25</sup>.

وتضمن المجلد الأول من هذه الفهارس، والمفرد في قسم التاريخ وكتب الرحلات، وصف هذه المخطوطة التي تقع في 12 ورقة، ورقمها 5656. وملخصها أنها رحلة حجازية، وصاحبها هو عبد الرحمان بن أبي القاسم الشاوي المزمري الغنامي، الذي وصل مكة المكرمة في شهر ذي الحجة 1141/يوليوز 1729، وزار بعد أداء مناسك الحج سائر المشاهد التي بمكة المكرمة والمدينة المنورة. ووقف على مزارات القاهرة والإسكندرية، وهو في طريق العودة، وتردد إلى قبور العلماء والصلحاء بتونس التي دخلها يوم 24 رجب 1142/12 فبراير 1730. ويخلص واصف هذه المخطوطة إلى أنها تقف عند هذا الحد بسبب البتر الذي بآخرها<sup>26</sup>، والواقع أن الموجود من "رحلة القاصدين" ينتهي بوصول صاحبها إلى تطوان يوم 24 شوال 1142/11 ماي 1730<sup>27</sup>.

ونظم كتاب "المصادر العربية لتاريخ المغرب" (1983) "رحلة القاصدين" في سلك الرحلات الحجازية المصنفة خلال العصر العلوي الأول، ونبه إلى أن نسختها الفريدة هاته والمبتورة الآخر لا تتضمن الفقرة التي اقتبسها الافراني منها في تاريخه "النزهة"

(23) أ. الناصري، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955، ج 6، ص. 86-88.

(24) ع. بن سوادة، دليل، مرجع سابق، ج 2، ص. 343.

(25) ع. عنان، فهارس، المجلد الأول، رجع سابق، ص. 455.

(26) نفس المرجع، نفس الصفحة.

- ع. عنان وع. لمدير وم. س. جنشي، فهارس، مرجع سابق، 559.

(27) عبد الرحمان بن أبي القاسم الشاوي المزمري الغنامي، رحلة القاصدين ورغبة الزائرين، مخطوط محفوظ بالخزانة الحسينية بالرباط، عدده 5656، ص. 24.

و"الصفوة"<sup>28</sup>. وتواترت الإحالة على "رحلة القاصدين" في تحقيق النقل الذي تقرب به الافراني في "نزهة الحادي"<sup>29</sup>، وفي المتون التي اقتبست منه كمتن "الخبر عن ظهور العياشي" لأبي املق<sup>30</sup>.

وتصف الدراسة المفردة في "الرحلات المغربية في القرنين ت 11 و 12 / 17 و 18" "رحلة القاصدين" بأنها رحلة مغمورة، وأن مؤلفها من الفقهاء المغمورين وتطعن في قيمتها الأدبية، وتقول إن بضاعة صاحبها مزجاة، وأسلوبه ركيك، ونفسه في التأليف حسير، وأنه دون مستوى الرحالين الذين استفادوا من تنقلاتهم ومشاهداتهم. ذلك أنه أغفل الوصف الجغرافي، وتعداد المراحل، وذكر أحوال البلدان التي مر بها فتخطى هذه المواضيع، ووجد نفسه في مكة المكرمة صبيحة يوم الأحد 6 ذي الحجة 3/1141 يوليوز 1729!

ولا تتكرر هذه الدراسة قيمة الفوائد التاريخية الموجودة في "رحلة القاصدين" على صغر حجمها، مثل ذكر المشايخ الذين حج معهم المؤلف، ومنهم شيخاه محمد بن زكري (ت 1731/1144) ومحمد بن عبد السلام بناني (ت 1764/1163)، والشيخ محمد بن عبد الرحمان الدلائي الذي وافاه الأجل في الطريق إلى المدينة المنورة يوم 24 ذي الحجة 21/1141 يوليوز 1729، ودفن بوادي فاطمة. ووصف مكتبة المدينة المنورة التي تزخر بمختلف أصناف الكتب المهداة من قبل مؤلفيها إلى المقام الشريف من مختلف بقاع العالم الإسلامي، وأيضا المصاحف المتنوعة الأحجام، وفي طليعتها مصحف الخليفة عثمان بن عفان الذي قيل للغنامي إنه في صندوق بالروضة الشريفة لا يخرج إلا عند الدواهي العظام للاستشفاع به. والإشارة إلى الأثر الذي خلفه بعض العلماء المغاربة في نفوس علماء الأزهر، والذين سلموا لهم بالتقدم في الفهم والحفظ، وسنقف عندها في حينه.

وينتهي الكلام عن "رحلة القاصدين" في هذه الدراسة بوصف عودة المؤلف من مصر في سفينة إسبانية مع النصاري، وتخوفه من القراصنة، إلى أن دخل "جبل الطر" -حسب

(28) م. المنوني، المصادر العربية، مرجع سابق، ج 1، ص. 189، الهامش 28.

(29) م. الافراني، نزهة، مصدر سابق، 386، الهامش 21.

(30) ع. أبو املق، الخبر، ضمن الرحلة العياشية، مرجع سابق، 190.



تعبير العامة- ومنه توجه إلى تطوان، فدخلها يوم 24 شوال 1142 / 11 ماي 1730<sup>31</sup>.

وبعد مرور أعوام عديدة على هذه الدراسة التي تمت عام 1986 أنجز صاحبها ترجمة لمؤلف "رحلة القاصدين"، وقد صدرت بالعدد 16 من أعداد "معلمة المغرب"<sup>32</sup>، والمنشور عام 2002. واستدرك فيها بالقول إن عبد الرحمان الغنامي من أعلام الشاوية وقضاتها في منتصف القرن 18/12، وإن رحلته تعد من مصادر الاقراي في كتابيه "النزهة" و"الصفوة". واکتملت سلسلة الدراسات التي همت "رحلة القاصدين" مؤخرا (2003) بمقاربة سيميولوجية نظمت مادتها في ثلاثة محاور هي:

- الحج الشرعي: وتتبع هذا المحور محطات هذه الرحلة الحجازية ومجرباتها، وبالأخص في طريق العودة بحرا.

- الحج العرفي: وتناول هذا المحور الزيارات التي قام بها صاحب الرحلة إلى أضرحة ومقابر ومضان تعبد غير منصوص عليها في فريضة الحج، وذلك في الحجاز وفي مصر وفي تونس.

- زلزلة الشخصية القاعدية: وأبرز هذا المحور موقف الرحالة مما يخالف قاعدته المعرفية، وتقاليد الجماعة التي عاش في كنفها، ومكونات شخصيته المختلفة. وبين أن قاعدته المعرفية مؤسسة على الوحدة في المذهب وفي العقيدة وفي الطريقة وفي اللغة وفي اللباس، فخير عوالم معرفية مغايرة، وشاهد أقواما مختلفين، واطلع على مذاهب وعقائد وطرق متباينة، وسمع لغات غريبة. وأوضح أنه كان يعتقد في خيرية أمة الإسلام وأفضليتها على ما سواها من الأمم، فاكترث بما رأى من تدافع المسلمين وأنانيتهم واختصاصهم على المشرب والمطعم، وإقدام بعضهم على سلب ونهب بل وقتل بعض الحجاج، وهذا في البقاع المقدسة نفسها، وهاله تحكم اليهود والنصارى فيه لما ركب سفينتهم في طريق أوبته.

واقترحت هذه المقاربة مفاهيم لتفسير الخلطة التي نالت تشخيصية الرحالة، وخلصت إلى أن رحلته "مؤشر على وضع عام متدهور كان يعيشه العالم الإسلامي الذي صار محروما من الثروة والجاء، ومؤشر على وضع مغربي خاص معاصر من جميع جهاته،

(31) م. مكمان، الرحلات، مرجع سابق، ص. 176-177.

(32) نفس المؤلف، عبد الرحمان الشاوي، معلمة، مرجع سابق، ج. 16 ص. 5273-5274.

ومؤشر على وضع أخص متجل في شخص متعلم توجهه ثقافة شعبية سائدة، وثقافة تعليمية فاقدة الصلة بالثقافة الحية<sup>33</sup>.

## بيت القصيد

والآن وقد بلغنا الغاية في تتبع أخبار "رحلة القاصدين" يعنُّ السؤال وماذا بعد هذه النهاية التي لا تختلف عن النهايات السعيدة لقصص البحث والكشف عن الآثار الضائعة والمفقودة؟ وهل بعد هذا من كشف وتبيين؟ وكيف يسلم عنوان هذه المقالة من الدخول في باب الدعاوى والمزاعم؟ وهل لا زال متن "رحلة القاصدين" المبتور والغثيث يحتمل زيادة توضيح وتأمل وتعرف؟ وهل فضلت في أوراقها التي لا تنيف عن العشرة نفاضة وبقية، وقد توارد إليها المفهرس والمؤرخ والمترجم والمحقق وعالم الدليل؟

وتبدو هذه الأسئلة تقريرية، ويتبادر إلى الذهن أن جوابها النفي، وأن السكوت عنه أولى لوضوحه، لكن الرد بالإيجاب عليها هو الصواب. بل إن هذا الجواب لهو من القوة بحيث يعصف بكل ما سبق، ويدعو إلى بيان جديد. ذلك أن "رحلة القاصدين" هي غير الرحلة التي اعتمدها الإفراني في "النزهة" و"الصفوة"، وإنما في الحقيقة بصدد رحلتين ومؤلفين مختلفين.

## رحلتان وسميان

يفسر الخلط بين الرحلتين أمران:

الأول هو المواطأة في تسمية ونسبة وأصل المؤلفين، فكلاهما اسمه عبد الرحمان، وكلاهما نسبته إلى قبيلة الشاوية، وكلاهما أصله من قبيلة الغنائمة، فهما معا يدعيان: عبد الرحمان الشاوي الغنامي. ولكن عند التدقيق يلاحظ أنهما يختلفان في اسم أبيهما: فوالد صاحب الرحلة التي اعتمدها الإفراني اسمه أحمد<sup>34</sup>، ووالد صاحب "رحلة القاصدين" اسمه أبو القاسم<sup>35</sup>.

(33) م. مفتاح، صور من تامسنا، مرجع سابق، ص. 229-251.

(34) م. الإفراني، نزهة، مصدر سابق، ص. 386.

(35) ع. الشاوي الغنامي، رحلة، مصدر سابق، ص. 2.

الثاني إنهما إنما ظهرا وعرفا بالرحلة التي ألفا، والتي لولاها لما حصل لهما ذكر، ولجر عليهما النسيان أذنيه. ثم إن رحلة عبد الرحمان المعروف برحو بن أحمد الغنامي الشاوي لا يعرف لها عنوان، وهي هنة يسرت الوهم أنها توسم بعنوان "رحلة القاصدين ورغبة الزائرين". كما أن البتر الذي لحق آخر رحلة عبد الرحمان بن أبي القاسم الغنامي الشاوي، أعان على نسبة النقل الذي حفظته "النزهة" و"الصفوة" من رحلة سلفه وسميه إلى هذا القسط المبتور.

ويبقى أن هذه المسوغات لا تعفي من ملاحظة البون الشاسع بين الرجلين: فرحو الغنامي الشاوي أحد خاصة مملكة مراكش على عهد السعديين المتأخرين، وهو متولي خطة القضاء ببلاد تامسنا في حينه، ومن المشاركين في الأحداث الجسام التي خاضتها القوات الكبرى في البلاد، ومن المجاهدين في سبيل دفع الأيبيريين عن الثغور، وتكفي تحليلته بالعلامة من قبل الإفرائي للقول إنه من أعلام الحياة الفكرية زمان الفترة من القرن 17/11.

وأنى عبد الرحمان بن أبي القاسم الغنامي الشاوي من كل هذا؟ إنه لا يزيد عن كونه أحد الطلبة المغمورين والمتخرجين بفاس على يد طبقة الإمام محمد بن أحمد المسناوي الدلائي (ت1723/1136)، ومن أفرادها شيخاه ابن زكري وبناني اللذان رافقهما في رحلته الحجازية هاته. وتشهد عليه "رحلة القاصدين" بأنه دون المستوى العلمي الرفيع الذي بلغه بعض أصحابه الذين يلمح إليهم فيها، ومنهم أحمد بن عاشر السلاوي الحافي (ت1749/1163)، وربما محمد الصغير الإفرائي أيضا. وتعد رحلته هاته خير مثال على الضعف الذي سرى إلى منهجية الرحالين خلال العصر العلوي الأول، وتمثل للاختصار المجحف الناجم عن افتقاد النفس الطويل في التأليف، علاوة على تواضع الأسلوب.

وقد أشارت المقاربة السيميولوجية " لرحلة القاصدين " إلى أن بها "أخطاء نحوية تنبئ عن جهل بقواعد اللغة، وأخطاء لغوية تخبر عن زاد فقير من متن اللغة، وأخطاء في أسماء الأعلام تبين عن انقطاع الصلة بين الرحالة والمعارف المتداولة في عصره"<sup>36</sup>. وذهبت إلى القول إن هذه الأخطاء العديدة "لا يتصور أن تصدر عن فقيه قاض"<sup>37</sup>، لكنها سوغت ذلك،

(36) م. مفتاح، صور من تامسنا، مرجع سابق، ص. 234.

(37) نفس المرجع، ص. 235.

وظاهرت بحادث امتحان المولى إسماعيل قضاة البوادي واتهامهم بالجهل. وخلصت إلى أن خطة القضاء في عصره، وخصوصا في الشاوية، لم تكن تنبئ عن علم غزير أو دراية فائقة<sup>38</sup>.

والحدثان اللذان ارتبط بهما السميان مؤرخان ومضبوطان، وبأبيان أن يكون بطلهما واحد. ذلك أن قرنا بأكمله يفصل بين غزوة البريجة التي وقعت عام 1639/1049 والتي حضرها القاضي رحو الغنامي، وبين الرحلة الحجازية التي تمت عامي 1141 و1728/1142 ودونها عبد الرحمان بن أبي القاسم الغنامي في تأليفه "رحلة القاصدين".

وقد لاحظت المقاربة السيميولوجية الفرق بين تاريخ تأليف "النزهة" الذي جعلته عام 1726/1139 وبين تاريخ "رحلة القاصدين" المذكور، وقالت إنه يثير مشاكل، ويؤدي إلى وضع عدة فروض أرجأت الإفصاح عنها<sup>39</sup>. لكن يبقى هذا الفرق الملاحظ يسيرا، ولا يتعدى نيفا من السنين، ولا يمكن مقارنته بحال بالفرق الشاسع بين تاريخ الحدث المقصود وهو غزوة البريجة وتاريخ الرحلة التي تهمنا، والذي يزيد عن تسعة عقود كاملة. ولعل ملاحظة هذا الفرق الهين هي التي فوتت فرصة موافقة الصواب في تقييم النقل الوارد في "النزهة"، وبالتالي التحفظ في نسبته إلى الجزء المبتور من "رحلة القاصدين"، واعتباره إضافة إلى سيرة مؤلفها، واعتمادها "وإن كانت تعقد البحث أكثر مما تسهله"<sup>40</sup>، والقول إنها تؤرخ لحلقة من حلقات الجهاد ضد البرتغاليين المحتلين لثغر البريجة على عهد المولى إسماعيل<sup>41</sup>.

## جد وحفيد

لا يمنع الحرص على إثبات الفرق بين الرجلين من إبراز الجامع بينهما، والذي أوجب أن يكونا سميين ومشتركين في الأصل والنسبة ورحالتين، وأوهم أنهما رجل واحد لا رجلا. ويقطع اشتراكهما في التسمية الرحمانية والنسبة الشاوية والأصل الغنامي بانتسابهما

(38) نفسه، ص. 233.

(39) نفسه، ص. 231 والهامش 7.

(40) نفسه، ص. 231.

(41) نفسه، ص. 247.

إلى بيت واحد، وأنهما ذوا قرى، وأن صلة الجد والحفيد تنظم بينهما، وأن عبد الرحمان بن أبي القاسم من عقب عبد الرحمان بن أحمد. ولعل آفة الاختصار المجحف التي أدركت "رحلة القاصدين" هي التي جعلت المؤلف لا يزيد في ذكر نسبه عن والده أبي القاسم، ويقصر عن رفع عمود نسبه إلى جده وسميه عبد الرحمان بن أحمد.

وإذا كانت قبائل الشاوية متعددة، فإن الشاوي الحفيد قد حدد في صدر رحلته القبيلة الشاوية التي ينتمي إليها، وهي قبيلة المزامزة<sup>42</sup>. فيكون أسلافه من الغناميين الذين طرأوا على هذه القبيلة في زمن غير معلوم، ويكون بيتهم فيها من مشاهير البيوتات الشاوية. وقد تولى رحو الشاوي المزمزي قضاء تامسنا، وجمع بين العلم والصلاح والجهاد. وأخذ عبد الرحمان الشاوي المزمزي الحفيد العلم بفاس، ويمم إلى الحجاز، واقتفى أثر جده في تدوين الرحلة.

## بين الإفرائي والشاوي الغنامي الحفيد

تفرد الإفرائي بالنقل من رحلة رحو الغنامي في تاريخه "النزهة" و"الصفوة"، وهذا التفرد مدعاة للسؤال عن الظروف التي سنحت له بالاهتداء إلى هذا المصدر الغميس، وجعلت كتابيه المذكورين مستودع بعض درر هذا التصنيف النفيس.

رحل كل من الإفرائي والغنامي الحفيد إلى فاس قصد الأخذ والتعلم، واشتركا في التلمذ على مشايخ طبقة علمية واحدة، ومنهم الشيخ ابن زكري الذي تعنى به "رحلة القاصدين"، الأمر الذي يبيح القول بلقائهما وتعارفهما. ولما كانت الرحلة الفاسية هي التي أوحى للإفرائي بمشروع كتابيه "النزهة" و"الصفوة"، وخلالها شرع في البحث عن مادتهما، واشتغل بتجميع مصادرهما، ومن بينها كتب الرحلات على اختلاف أصنافها، فلا يستبعد أن يكون الغنامي الحفيد هو الذي مكنه من رحلة جده التي تتصل اتصالا وثيقا بالموضوع الذي يدور حوله، وأهداه بالتالي مصدرا يعد من عيون مصادره.

(42) عن قبيلة المزامزة انظر:

- علال الخديمي، أولاد بوزيري، معطمة المغرب، ج. 5، ص. 1711.

- نفس المؤلف، الشاوية، نفس المرجع، ج. 16، ص. 5279-5281.

## من المطابقة إلى المعارضة

طابقت الدراسات السابقة بين "رحلة القاصدين" ورحلة رحو الغنامي الجد وجعلتهما رحلة واحدة، والآن وقد تم فك الارتباط بينهما، وتبين أنهما رحلتان منفصلتان، لزمّت معارضة إحداهما بالأخرى. ولا ريب أن تبديد الاعتقاد الذي تواتر في كون "رحلة القاصدين" هي المقصودة في "النزهة" و"الصفوة" سيكشف بدها ويخسها قدرها بعض الشيء، تماماً كما تواضعت سيرة مؤلفها بعد أن فقدت مقومات العلم والقضاء والجهاد. لكنها تبقى مع ذلك من بواكير الرحلات الحجازية المدونة في بداية أزمة الثلاثين سنة التي أعقبت وفاة السلطان المولى إسماعيل، وتعتبر نموذجاً من النماذج الممثلة لرحلات العصر العلوي الأول.

وتستعيد رحلة رحو الغنامي الجد ألقها، وقد زایلها غبش الاشتباه "برحلة القاصدين" والذي خالطها أمداء، تماماً كما تسطع الشمس وقد ترحزح قرص القمر بعد أن اعترضها وحجبها. لكنها لا تلبث أن تمضي نحو الأفق الغربي وتتوارى، فتعود إلى خفائها وتعزرها. ويبقى النقل منها في "النزهة" و"الصفوة" الشاهد على نفاسة مادتها، مثله مثل ذلك الجدار الذي تحته كنز، فعسى أن تكون رحلة رحو الغنامي كذلك الكنز الذي مصيره أن يعثر عليه ويستخرج.

عبد الله نجمي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط